تخافون، يسبّ بعضكم بعضاً، تتقاتلون، تضحكون.. تضحكون.. تضحكون..

وفي صباح اليوم التّالي، وقبل أن تتوسّط الشّمسُ كبدَ السّماء، تمتشقون الشّوارعَ اللّوزية، وساحات الجامعة الاسفلتيّة النّاعمة تغطّيها سحبُ الحمائم القماشيّة البيض. تشدّون كلّ حمامة من قدميها الخشبيتين لينفرج القماش الأبيض صحائفَ حُبّرت باللّون الأحمر والأسود تحيّون ذكرى المناسبات الوطنية، وسقوط الشّهداء..

تدقُّون قفلَ الحرية بعناد، وتسيرون دون اكتراث.

ينظرون إليكم كومةً من حطب، أو شعلةً من غضب... أو كتلةَ خراء جوفاء تيبست قشرتُها غلافاً لبعض الصّراصير السّوداء الحقيرة.

ـ «من أنتم؟» أسأل.

أشدُّك من قميصك وأسأل، أهزّك بعنف وأنا أصرخ في وجهك:

ـ «ما لنا، ولهذه الأمور؟

ابتعدْ عنهم ـ

ستسقطون ـ

منكم وفيكم ستسقطون ـ

سيزجّون بكم في غياهب أماكن لا نعرفها، لا تدركها الأنظار، ولا يدلّوننا عليها ـ

ابتعد عنهم ـ؟؟»

أقتربُ من أنفاسه، أُمسكه من كتفه. ينظر إليّ صامتاً مطاطئ الرّأس بلا ملامح.

هل تأثّر بكلامي ـ وقتها ـ وتراجع؟

قبل أن أغادره، تكون فترة وقوفنا قد سلختنا عن المسيرة، فابتعدتْ. أعيد عليه الكلام، وفحوى النّظام. أنبّهه إلى الحرص على جامعته ودروسه فقط. يواصل النّظر، صامتاً لا يتململ؛ أتركه؛ أودّعه. لكن ليس قبل أن أعتذر منه: «أرجوك، لا تزعل من طريقتي الفظّة، أنت تعرفني، أنا قصدي مصلحتك، وخوفي عليك، وعلى مستقبلك». لكنّ اللّعين يبقى في مكانه جامداً لا يتحرّك. الأرض تحت قدمي تهتزّ لنبرة صوتي الرّاجية. هدوؤه ينمنم جسدي ويثير أعصابي. طريقة صمته هذه أَشعُرُ بها سياطاً يجلدني بها عقاباً واحتقاراً ـ كأنّه يبصق في وجهي أو يصفعني بحذائه المهترئ... لعلّه هذه المرّة يسمعني، يطيعني، لعلّه أقتنع بوجهة نظري، وسوف يتركهم.

أودّعه، منسلخاً عن مسيرة صاخبة لا تقف.

خماسيّة الأحذية المعدنيّة

فاتح عبد السلام

قصّة رقم (١)

صعد الحاجب على المنبر وخطب في النّاس:

ـ أيّها النّاس، إنَّ مولاي الوالي حزينٌ جدّاً منذ أنْ عرف أنّكم غير مرتاحين من احتذاء الأحذية الحديديّة ليلَ نهار. وإنَّ صاحب المودّة يشعر بأحوالكم ومعاناتكم كلَّ لحظة. ولكنَّه في الوقت نفسه لا يريد أن يجعلكم لقمة سائغة في فم الوباء الذي اكتسح المدينة قبل مئات السنين.

صرخ أحدُ العامّة: وما علاقة الوباء بالأحذية؟

فَهَمَّ الحرس أنْ يضربوه بأعقاب الرّماح على رأسه، ولكن الحاجب منعهم قائلاً:

ـ من حقِّ النّاس أنْ تسأل ما تشاء ومن واجبنا أنْ نجيبهم.

هتف حارس: يعيش عدل الحاجب في زمن الوالي العادل.

ردَّد الحرس: يعيش.. يعيش.. يعيش..

وقال الحاجب: وأصل الحكاية أيّها النّاس الكرام، أنَّ وباءً فتّاكاً حلَّ ذات يوم بالمدينة ولم يكن أحد يعلم بمصدره، فأمر الوالي أدامه الله بإحضار رئيس أطبّاء العصر.

هتف الحرّاس: أدام الله الوالي.

أكمل الحاجب: فجاء ابنُ سينا إلى البلاط وقال:

ـ سمعاً وطاعةً يا مولاي.

فقال له الوالي:

ـ أين كنت يا رئيس الأطبّاء، والوباءُ يفتك بأهل بلدتي؟.

قال ابن سينا: إنّي أعملُ ليلَ نهار يا مولاي في سبيل إنقاذ النّاس.

قال الوالي: وهل عرفت سبب الدّاء؟.

فأجابه: أجل يا مولاي.

ـ وما هو يا ابن سينا؟

قال رئيس الأطبّاء: نعتقد يا مولاي أنّه فايروس جديد يُسمَّى فايروس الأحلام.

صرخ واحدٌ من الرّعيّة: وما سببه أيّها الحاجب؟

ابتسم الحاجب: هذا ما قاله صاحب المودّة للطبيب.

وصرخ آخر: وما أعراضه أيّها الحاجب؟

ـ وهذا أيضاً ما قاله الوالي لابن سينا.

هتف حارس مدجَّج بالسّلاح: يعيش مولاي الوالي.

فردَّد الحرّاس خلفه وقد أزبدت شفاههم من الهتاف: يعيش.. يعيش.. يعيش..

سأل مواطن: وبماذا أجاب آبن سينا؟

قال الحاجب: أجاب بأنَّه لم يستطع التوصُّل إلى السّبب، ولكنّه قال إنَّ أعراض هذا الوباء هي طَفْحٌ بلون الورد يظهر في الوجه ولمعانٌ في العينين وانطلاقٌ في اللِّسان.

ـ وكيف ينطلق اللِّسان أيّها الحاجب؟

ـ يتكلَّم في الممنوعات ويخرج عن آداب الحديث..

ـ وماذا حصل بعد؟

قال الحاجب: اضطرّ الوالي أنْ يطرد ابن سينا من بلاطه وخلعه عن كرسي رئاسة الأطبّاء. وجاء بالطبيب الزهراوي مكانه، ففشل في علاج النّاس، فخلعه. وجاء بالكندي، فعجز أيضاً. وجاء بابن الهيثم، ففشل. وجاء بالرّازي، وطرده لفشله. ولم يستطع أحد معالجة النّاس.. وكان الوالي ينظر إلى المدينة المنكوبة بعينين حزينتين تفيضان بدموع مقدّسة.. حتّى اهتدىٰ حضرتُه إلى اختراع الأحذية الحديديّة التي انتعلها النّاس ليلاً ونهاراً، فذهب عنهم الطفح الوردي ومات اللمعانُ في العيون ولزم اللِّسان حدوده..

صرخ حارس: عاش عِلم الوالي..

وهتف آخر: ليعش الاختراع الأكبر لمولاي الوالي.

قال الحاجب: أتمنّىٰ أنْ تكونوا قد اطّلعتم على خفايا أمور البلدة.. واشتركتم في صنع قرارات الوطن.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

يُذْكَر أنَّ آبن سينا والزهراوي وابن الهيثم والكندي والرّازي قد ماتوا متأثّرين من إصابتهم بذلك الفايروس الفتّاك لأنَّهم لم يستجيبوا لعلاج الوالي.

ويذكر أيضاً أنَّ أطبّاء شبّاناً ومهندسين وعلماء في الذرّة وطبقات الأرض والنفط واللُّغة والأدب والفكر مازالوا يخضعون إلى العلاج الشّافي في غرفة العناية المركّزة.

قصّة رقم (٢)

عندما جاع إنسان، وأيقن أنَّ عائلته ستبيت بلا عشاء، جحظت عيناه على حذاء حديد لامع واشتعلت في رأسه فكرةٌ مالبث أن أعلنها لصاحبه مأمور المخزن: كم يساوي هذا الحذاء الحديديّ؟

مطَّ صاحبه شاربيه قائلاً: الكثير من الدنانير.

ضحكت معدةُ الإنسان وسُرَّت أمعاؤه وقال لنفسه: أعرف أنَّ بيع هذا الحذاء الحديدي لا يجعلني غنيّاً ولكنَّه يشبعني وعائلتي هذه الليلة.

قال له صاحبه: لماذا تسأل عن أسعار الأحذية؟ مضى على تعاملي معها عشر سنوات ولم يخطر في بالي كم سعرها.

وفي اليوم التالي عرف الرجل أنَّ مخزنه ينقصه حذاء واحد، وكاد يعرف مغزى سؤال الإنسان البارحة ولكنّه انشغل بوجبة أحذية جديدة استلمها من شاحنات طويلة، وستوزّع خلال أيّام على شباب صغار لم يحلقوا لحاهم بعد. ونسيَ الحادث تماماً.

واخترع ذلك الإنسانُ الجائعُ حيلةً ماكرةً أخرج بها الحذاء المسروق من بوّابة المعسكر المحروسة.

ولمّا وصل بيتَه الخاوي طمأن زوجته وأولاده أنَّهم سيشبعون الليلة ملءَ بطونهم، وخرج إلى السوق ليبيعه سرّاً فلم يجد ذلك اليوم شارياً. وتكرَّر الحال يوماً آخر ويومين وثلاثة وشهراً وفصلاً وسنةً وعقداً وقرناً وخرج ليبيعه علناً بعد أنْ ملَّ السرّ، فواجهه الحال ذاته سنةً بعد أخرىٰ. وكان قد صرف ما يقبضه من أجور وبعدها راتبه التقاعدي على تلميع الحذاء ونفض الغبار عنه والتّدليل عليه، وليس ثمّة شارٍ.

وذات صباح... وضع الحذاء تحت إبطه وودَّع عائلته واتّجه إلى المعسكر فوجد أنَّ النّاس غير النّاس وأنَّ الحجارة غير الحجارة. فأعاده نادماً إلى المخزن الذي سرقه منه قبل مئات السنين.

فأوثقوا يديه وقدَّموه إلى المحاكمة العسكريّة لنيل العقاب.

قصّة رقم (٣)

بعد أن خلق الله البسيطة، وضع عليها البشر الذين مالبثوا أن انقسموا إلى جماعتين: جماعة تحتذي أحذيةً من حديد وأخرى تحتذي أحذيةً من ذهب. وأمرهم بالعيش آمنين بعد تأدية الصلاة والزكاة والجهاد وكفّ الأذىٰ عن العباد.

وكان بين رجال الجماعة الأولى رجلٌ يملك حذاءً من حديد رائعاً وشديدَ النّظافة يلهث في ضوء النّهار.

وفي أحد الأيّام اصطحب هذا الرجلُ زوجتَه وأطفاله في جولة تنزّه على الشاطئ الوحيد لنهر المدينة. فإذا برجل طويل الرأس عريض البطن ليس لديه رقبة أو ركبة، يتقدَّم نحو العائلة التي كانت سعيدة وهي تقرأ لافتات من حديد مغروسة في رمال النهر تمجِّد الإنسانَ وحقوقه في التصرُّف والرأي والامتلاك.

وكان الأب ينبِّه أولاده وزوجته ألاَّ يغفلوا عن قراءتها جيِّداً، لأنَّها من رموز الحياة الجديدة. وفجأة أبصر الأبُ هذا القادمَ ولحظ أنَّه يحتذي حذاءً من ذهب مثخناً بالدهان ولكنَّه بلا لمعان.

ابتسم ذو الحذاء الحديد وأجبر عائلته على الابتسام في وجه هذا الذي ابتدره: من أين لك هذا الحذاء الحديدي الجديد؟

ـ ليس جديداً. هذا حذائي الذي صاحبني رحلة عمري.

ـ إنَّ أحذية النّاس قد بليت ويكاد ينطق حذاؤك من نظافته.

ـ لقد اعتنيتُ به وعرفتْ زوجتي كيف تلمّعه كلَّ يوم وتمسح عنه الأقذار.

ـ ولكن هذا ليس سبباً كافياً.

ـ ليس عندي يا سيّدي سبب آخر أقوله.

ـ أعطني حذاءك حالاً..

مرَّت على عينيه تجربةُ عمره كلّها يحملها سؤالٌ مقهور: أينزع الحذاء ويعطيه أم يمتنع؟

وأدرك فوراً أنَّه لا يليق به أنْ تقع مشاجرة سيخسرها حتماً، ويعرِّض هيبته العائليّة للمهانة.

وقال لزوجته وأطفاله الخائفين: إنَّ من أقرب هواياتي إلى نفسي السّيرَ حافياً على رمال الشاطئ... هذه متعتي الحقيقيّة...

دهشت الزوجة: أوّل مرّة أسمع أنَّ لك هذه الهواية.

أصرَّ على إقناعها: إنَّها هواية قديمة.. وُلِدت مع طفولتي.. ولم يكن لديَّ متّسعٌ من الوقت كي أُحدِّثك عنها.

فغرت الزوجة فمها: عشرون سنة من الزواج ولم تسنح لك الفرصة!! ماذا كنت تنتظر؟

كان يشعرُ بالسّعادة عندما تغوص قدماه بالرّمل البارد.

وقال في نفسه: لا بأس أن يكون هناك حوار من نوع ما مع أبناء الجماعة الأخرى حتّى إذا أخذوا منّا أحذيتنا.. فلربَّما جاء يوم احتذينا فيه أحذيتهم.

ولم يكن هذا الخاطر حلماً بعيداً.. فقد مرَّت في مخيلة الرجل ذات يوم فكرةُ أنْ يحتذي حذاءً من ذهب؛ فقد تعب من المشي حافياً وشعر أنَّه قد أسدىٰ خدمةً من قبلُ بإعطاء حذائه الجديد، فلا بأس أن يحتذي حذاءً استطاع أن يبتاعه بعد أن باع مصوغات زوجته الذهبيّة، وقتَّر على إطعام أطفاله أيّاماً طويلة.

وسار في الشّارع بحذائه الذهبي وهو يغصُّ بمشاعر السعادة والأمان.. حتّى واجه أمامه موكباً من العساكر يتقدَّمه كرسيٌّ ضخم جدّاً يجلس عليه الرجل الذي أخذ منه ذات يوم حذاءَهُ الحديد، وخلفه حرّاس مخيفون. وكانت قدما هذا الرجل حافيتين قد سرى فيهما مرضٌ يمنعه من انتعال أيّ حذاء.. وكان قد اتّسع بطنه واحتقن وجهه بدمٍ أسود.

كان الموكب يتقدَّم باتِّجاه الرجل الذي يقف على الرّصيف دَهِشاً.

أشار الرجل الضخم من فوق كرسيّه إشارةً بيده الثقيلة إلى الحذاء الذهبي.. فعرف الحرس المقرّبون مقصده وهرعوا إلى الرجل وأوسعوه ضرباً وحملوه إلى قفص حديدي.

وعرف الرجل داخل قفصه معنىٰ أن يكون هناك اختلاف في معادن الأحذية التي تدوس على الأرض.

قصّة رقم (٤)

وصلت إلى المستشفى الحكومي جثّةُ إنسان قد لدغته أفعى سامّة فمات.

قال الطبيب: أدخلوه إلى المشرحة.

فأدخلوه وهُرع خلفه أطبّاء يحملون رتباً وممرِّضون، وعملت المشارط عملها في جسده. وبعد ساعات خرج الطبيب من غرفة المشرحة وفي يده حذاء من حديد مطيّن. وقال لذوي الرجل الميت:

ـ انظروا إلى هذا الحذاء جيِّداً.. لولا وجوده لاستطاعت الأفعىٰ أنْ تلدغه من قدميه، وهذا من فوائد احتذاء الأحذية الحديديّة حتّى في النّوم.

قال والد الرجل الميت وعيناه تفيضان دماً: هل أنقذته يا طبيب؟

أجاب الطبيب بيده قبل لسانه: أردت أن أشرح لكم أوّلاً كيف وقع الحادث وفائدة لبس الأحذية الحديديّة.

ألحَّ الوالد جَزِعاً: هل تستطيع أنْ تفعل شيئاً من أجل ابني.. قل لي أستحلفك بالله، هل تستطيع شيئاً؟

قال رجل: دعوا الطبيب يشرح الحالةَ. رجاءً أعطوه فرصةً يا رجال.

خضع الأبُ مقهوراً: سيبقى فمي مغلقاً حتّى يكمل الطبيب حديثه.

قال الطبيب: لا شكَّ أنَّ الأفعىٰ قد تعبت وهي تفكّر بسبيل تصل منه إلى ابنكم، لقد اضطرَّت الأفعىٰ حسبَ توقّعي إلى الصعود إلى أعلىٰ جسده وهو نائم مرتدياً حذاءَه الثخين لتلدغه في مقتل منه.

بكى الأبُ: فيموت...

قال الطبيب: أجل فيموت.

قصّة رقم (٥)

دقَّ بوق الحرب. فخرج الجنود من ثكناتهم أفواجاً. قامت فيهم ضجّةٌ مخيفة. صرخوا وبصقوا وتقيّأوا وشربوا وأكلوا وبالوا وبكوا وشتموا وضحكوا وأوصى بعضهم بعضاً وصيّة الموت، كلّ ذلك تمَّ في دقائق ثمّ تناولوا أسلحتهم ومضوا إلى أرض النّار والخوف.

كان ثمّة جندي يقف وحيداً ينظر إليهم، لم يفكِّر في اللّحاق بهم مطلقاً، فقد صدرتْ إليه الأوامرُ المشدَّدة بالبقاء مكانه ليلمّع مجموعة من الأحذية الذهبيّة اللّون التي سوف تُحتذىٰ في استعراضات الصباحات القادمة.

كان منهمكاً بين الأحذية، يجهد نفسه من أجل تلميعها جميعاً في الوقت المحدَّد.

وفي نهاية النّهار، جاءته الضّجّة الكبيرة مرّةً أخرىٰ. لقد عاد الجنود يملأ صراخُهُم المكانَ يحملون قتلاهم على حراب بنادقهم رؤوساً آدميّة يقطرُ منها الدم.

توقَّف عن عمله لحظات، ورفع رأسه، فرأىٰ مواكبهم المبعثرة تمشي أمامها صورٌ ممزَّقة ورايات ملطَّخة وحراب منكَّسة، وقد اصطبغت الأجساد بلون التراب.

كانت يده تتحرَّك جيئةً وذهاباً بفرشاة الدهان على حذاء ثقيل، وعيناه على المواكب العائدة.

ابتسم ابتسامة ضيقة. وعاد مكبّاً على تلميع الأحذية.

العراق